فارس الاسلام وعبقرى الايمان

على بن أبى طالب

للدكتور مهدى علام

سنقضى الليلة فترة مع بطولة شاملة نادرة ، تمثلت فيها القوة بأجلى معانيها . والبطولة هى القوة فى نواحى العظمة التى اتفق الناس على تمجيدها . وقد تمثلت القوة فى سيدنا على بن أبى طالب — رضى الله عنه — فى جميع نواحى العظمة .

تمثلت فيه بسطة فى الجسم ، ووجاهة لاتقتحمها العين ، وشجاعة دفعته إلى مقدمة الصفوف فى كل معركة خاضها مع الرسول الكريم ، وبسالة أنزلت الرعب فى قلب منازله ، وانتهت بهزيمة مقاتلة .

وتمثلت فيه بسطة العلم والدراية ، حتى ضرب به المثل فى حل المشكلات فقيل : قضية ولا أبا حسن لها .

وتمثلت فيه القوة عمقا فى الايمان ، ونفاذا فى البصيرة ، ورسوخا فى التقوى ، فكان أحد الأربعة السابقين إلى الايمان الذى تقدم ليلة الهجرة لينام فى فراش النبى صلى الله عليه وسلم — معرضا نفسه للهلاك فى سبيل نصرة نبيه .

وتمثلت فيه القوة سعة فى الحلم وشمولا فى السماحة حتى مع خصومه وأعدائه ، فعف لسانه عن انتقاصهم ، كما عف عن إنزال الهلاك بهم حين أمكنته الفرصة فى إحدى المعارك أن يستأصلهم بالعطش فى الصحراء .

وتمثلت فيه القوة زهداً وورعا وعفة . فما امتدت يده لغير ما أحل له الله ، وما أباح لنفسه أولاحد من عماله أو أقاربه أن تمتد يده إلى شئ من أموال المسلمين .

هذه هى بعض نواحى البطولة فى على الامام ، فى على بطل المسلمين والاسلام ، فى على بن عم الرسول ، فى على زوج فاطمة الزهراء ، فى على خاتم الخلفاء الراشدين .

وما أظن أن فى الاسلام بطولة تفوق بطولة على — كرم الله وجهه — فلقد كان لعلى خصوم فى حياته ، ودامت خصومتهم له حقبة من الزمن ، ثم انقرض خصومه ودالت دولتهم ، ومع ذلك كان هؤلاء الخصوم أنفسهم من أشد الناس تقديرا لعظمته وبطولته

وسأذكر بعد قليل طرفا من حديث معاوية عنه ، ولكننى أريد أن أقرر هنا ، أولا أن جميع المسلمين فى جميع بقاع الأرض ، من سنيين وشيعة ، يقرون للامام على بالعظمة والبطولة ، ويعرفون له فضائله الجليلة التى تحلى بها ، وثانيا . أننا إذا حذفنا كل ما يريد أن يتشكك فيه المتشككون مما نسب إلى سيدنا على من الأعمال ، واستبعدنا كل ما يريد أن يستبعده المتحرجون مما نسب اليه من الأقوال ! فإن ما يتبقى — مما لا شك فى نسبته اليه — كاف فى بيان عظمته وبطولته .

فما من شك فى أنه نشأ فى بيت الرسول الكريم منذ كان عمره ست سنوات ، وأنه تخلق بأخلاق النبي قبل رسالته ، واهتدى بهديه منذ اليوم الأول لاعلانها ، فكان بذلك بريئا من أدناس الجاهلية ، فكرم الوجه عن السجود لغير الله تعالى .

وما من شك فى أنه حمل مع الرسول الكريم عبء الرسالة ، وأنه قدم نفسه مفديا له ليلة الهجرة فنام فى فراشه ليوهم قريشا أن الرسول ما زال فى فراشه حتى لا يتعقبوه .

وما من شك فى أنه صاحب الرسول الكريم فى جميع غزواته إلا واحدة منها وأنه أبلى فيها جميعا بلاء حسنا ، فكان أول من تقدم للمبارزة يوم بدر ، وكان مع الثابتين إلى جانب النبي فى محنة أحد وحنين ، كما كان فاتح خيبر وحامل لواء النصر فى معركتها . أما الغزوة الوحيدة التى لم يصاحب الرسول فيها فهى غزوة تبوك ، وقد تخلف عنها بأمر النبي — عليه الصلاة والسلام — إذ استخلفه فى أهل بيته . وما كاد يرضى بذلك لولا أن قال له الرسول الكريم . أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبوة بعدى !

وما من شك فى أن سيدنا عليا كان من كتاب الوحى ، فسجل بقلمه كتاب الله تعالى كما أنزله الله على نبيه . ومن كان أحق بتسجيل آيات الله عقب نزولها من الفتى المؤمن المثقف ، المؤمن منذ اليوم الأول لظهور الاسلام ، والمثقف على يد محمد رسول الاسلام ؟

وقد ظل هذا الرباط الوثيق بين على وابن عمه الرسول ، ثم ازداد وثاقة بزواجه من ابنته السيدة فاطمة الزهراء ، فروى أحاديث الرسول كما سجل كتاب الله ، وتتلمذ عليه بن عباس فلازمه وأخذ عنه الحديث وتخرج على يديه . سئل بن عباس مرة أين علمك من علم بن عمك ؟ فقال : كقطرة المطر إلى البحر المحيط .

فليس عجيبا بعد هذا أن يكون لعلى تلك المنزلة الرفيعة فى العلم والرواية والرأى فقد كان حجة المسلمين فى الفقه والتفسير والفتيا ، حتى أن عمر بن الخطاب ، على جلالة قدره وعلمه ، كان يرجع اليه فيما يشكل عليه من أمور الدين ، وقد قال : لايفتين أحد فى المسجد وعلى حاضر ، كما قال ، رضى الله عنه : لولا على لهلك عمر .

ولقد منحته هذه النشأة ، وهذه الثقافة ، صفات الاسلام الحقة التى يكفينى منها الليلة صفتان أتحدث عنهما : أحداهما سماحته ، والأخرى ورعه .

ولقد يكون المرء سمحا مع الأصدقاء ، ولقد يكون المرء سمحا وقت الرضا والسلامة ولكن السماحه الحقيقية لا تتبين إلا وقت الشدة ، ومع الخصوم ، وعند المقدرة عليهم وكذلك كانت سماحة على رضى الله عنه . كان مروان بن الحكم من أشد الناس عداوة لعلى ، ألب عليه الجماعة ، وحارب فى صفوف أعدائه ، فلما ظفر به على السمح عفا عنه . وكان عبد الله بن الزبير يبسط لسانه فى على ، يسبه على رءوس الأشهاد ، فلما وقع أسيرا فى يد على يوم الجمل ، لم يزد على أن قال له : اذهب فلا أرينك .

وحدث فى أثناء قتال معاوية له لاغتصاب الخلافة منه ، ان سيطر عسكر معاوية على الموقف ، وأحاطوا بالماء الذى يستقى منه على وجيشه ، وأرادوا قتلهم ظمأ ، فأرسل لهم على ان يسمحوا لهم بشرب الماء . فاجابوه : لا والله حتى تموت ظمأ . فلما أدرك انه لا مفر من الموت استبسل هو وجيشه وهجموا على جيش معاوية ، فأزالوهم عن مراكزهم وسيطروا على الماء ، فاصبح معاوية وجيشه عرضة للهلاك من العطش . وهنا قال أصحاب على له : امنعهم الماء ، ياامير المؤمنين كما منعوك ، ولا تسقهم منه قطرة واقتلهم بسيوف العطش ، وخذهم قبضا بالأيدى ، فلا حاجة لك إلى الحرب . فقال لا والله ، لاأكفئهم بمثل فعلهم ، افسحوا لهم عن بعض الشريعة ، ففى حد السيف ما يغنى عن ذلك .

هذه سماحة القادر على عدوه ، سماحة المحارب الشريف الذى يابى إلا ان ينتصر شريفا أو يهزم شريفا . كذلك كان على — كرم الله وجهه — وما اصدقه عن نفسه حين قال ، وقد سمع الناس يتحدثون عن دهاء معاوية : « والله مامعاوية بأدهى منى ولكنه يغدر ويفجر . ولولا كراهية الغدر لكنت من ادهى الناس » .

أما زهده وورعه وتقشفه فذلك ما شهد به خصومه قبل اشياعه . ولكن لماذا نحب المتقشفين ونعجب بالزهاد ؟ لماذا تستهوينا هذه الصفات ، حتى حين نعجز عن

الاتصاف بها ؟ ان الزهد والورع والتقشف ترجمة لقوه نفسية عظيمة ، ودليل على عزيمة سليمة وشجاعة أدبية عملية تبدأ بقهر النفس الامارة بالسوء . هذا هو السر فى أعجابنا بالزهاد والمتقشفين ، حتى حينما نعجز عن محاكاتهم . أما الأسراف والتبذير والتبذل فلم يعهد ان يشير فى نفوسنا الأعجاب والأجلال ، لأن النفوس إذا كانت سليمة من الدنس والالتواء فإن هذه الصفات تثير فيها السخط والاشمئزاز ، وإذا كانت النفوس ضعيفة مريضة فإن هذه الصفات لاتزيد على أن تحرك فيها نوعا من الدهشة غير محدوده ، وشعوراً بشىء من القلق هو أقرب ما يكون إلى الحسد ، وابعد ما يكون عن الأعجاب . هذا هو السر فى انها على اختلاف طبائعنا لا تملك انفسنا عن الأعجاب بالزهد والتورع . وقد كان زهد على وتورعه وتقشفه موضع اعجاب اصحابه وخصومه على السواء .

كانت الأموال تجبى اليه من جميع البلاد التى فى طاعته ، ولكنه ظل أخشن الناس مأكلا وملبسا . جاءه عقيل أخوه ، وقد لزمه دين يريد ان يسده عنه خليفة المسلمين القابض على بيت المال ، فأضافه على ، ودعا بعشائه ، فإذا خبز وملح وبقل . فقال عقيل متسائلا عن الوليمة التى كان ينتظرها : ماهو إلا ما أرى ؟ فأخبره على انه لاسبيل إلى تغيير هذا الطعام : فقال عقيل : فتقضى دينى ؟ قال : وكم دينك ؟ قال : اربعون ألفا . قال على : ما هى عندى ، ولكن اصبر حتى يخرج عطائى فإنه اربعة آلاف درهم فأدفعه إليك . فقال عقيل : بيوت المال بيدك ، وأنت تستوفى بعطائك ؟ فقال على تأمرنى ان ادفع إليك اموال المسلمين وقد ائتمنونى عليها !

ولقد شهد له معاوية ، خصمه الألد ، بهذه النزاهة النزيهه . فقد حج معاوية بعد قتل على فسأل عن إمرأة يقال لها الدرامية الحجونية كانت من أنصار على . فلما جاءت قال لها : اتدرين لم بعثت إليك ؟ قالت : لا يعلم الغيب إلا الله . قال : بعثت إليك لأسالك علام أحببت عليا وأبغضتنى ، ووالیته وعاديتنى ؟ قالت : أو تعفينى ؟ قال لا أعفيك . قالت : أما إذ أبيت ، فإنى أحببت عليا على عدله فى الرعية ، وقسمه بالسوية ، وابغضتك على قتال من هو اولى منكم بالأمر من الولاء ، وحبه المساكين واعظامه لأهل الدين ، وعاديتك على سفكك الدماء ! وجورك فى القضاء ، وحكمك بالهوى . قال : هل رأيت عليا ؟ قالت : أى والله . قال فكيف رايته ؟ قالت : رايته والله لم يفتنه الملك الذى فتنك ، ولم تشغله النعمة التى شغلتك . قال: فهل لك حاجة نقضيها ؟ قالت : أو تفعل إذ سالتك ؟ قال : نعم . قالت : تعطينى مائة ناقة حمراء

فيها خلها وراعيها. قال : تصنعين بها ماذا ؟ قالت ، اغذو بألبانها الصغار ، وأستحي بها الكبار ، واكتسب بها المكارم ، وأصلح بها بين العشائر . قال : فإن أعطيتك ذلك فهل احل عندك محل على بن ابى طالب ؟ فقالت : سبحان الله : او دونه ! فانشد يقول :

إذا لم اعد بالحلم منى عنكم ... فمن ذا الذى بعدى يؤمل للحلم ؟
خذيها هنيئا ، واذكرى فعل ماجد ... جزاك على حرب العداوة بالسلم

ثم قال : والله لو كان على حيا ما أعطاك منها شيئا . قالت : لا والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين .

وبعد فهذه صفات على ، وهذه صفات أنصاره اقتبسوها منه ، وهذه شهادة خصومه دانوا فيها لعظمته ، واعترفوا فيها ببطولته .